اقتران نعت النبي (صلى الله عليه وسلم) بـ (يا أيها) في القرآن الكريم

د. عبد الكريم عمر علي / قسم الدعوة والخطابة / نينوى

* توطئة *

تعريف بدلالة التركيب القرآني

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا بحث في موضوع لم يتبين لي أن أحداً كتب فيه ، في سياق خطاب القرآن الكريم لحضرة الرسول ﷺ وبخاصةٍ في مجال اللغة العربية ضمن فرع الدلالة اللغوية والمعاني اللغوية وقد دفعني حبي:ـــ

أولاً: للتشرف بالكلام على النبي ﷺ .

ثانياً: للغة القرآن الكريم " اللغة العربية ".

فاللغة العربية تشرفت مرتين:

أولاً: لأنها لغة القرآن.

ثانياً: لأن النبي ﷺ ينتمي الى القوم الذين يتكلمون بها اصلاً.

فرأيت توخيا للسهولة أن أفرق أجزاء هذا التركيب الذي هو موضوع البحث ثم أنهال على كل جزء بالشرح والتفصيل وتوكلت على الله وقسمت البحث إلى مبحثين شمل الأول أجزاء تركيب (يا أيها) وأما الثاني فقد خص نعوت المصطفى ﷺ وختمتها بالفروق الدلالية بينها ثم خاتمة للبحث كله ولا يخفى على أي مسلم قدر النبي ﷺ وأن ذلك ليجري في عروق المسلمين عالمهم وكذا الجاهل فيهم، الأسود والأبيض، العربي والأعجمي، والشرقي والغربي، وذلك لما ثبت بالكتاب العزيز في أكثر من آية وأكثر من مكان، منها قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [١] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٢] ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [٣] وغيرها من الآيات مما لا مجال لذكرها هنا.

وتأكد ذلك في أقواله ﷺ {أنا سيد ولد آدم ولا فخر} [٤] وقوله ﷺ { يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة } [١] وأحاديث كثيرة تعضد ما ذكرناه [٢].

---

(١) القلم: آية (٤).
(٢) الأنبياء: آية(١٠٧).
(٣) الأحزاب: آية (٥٦).
(٤) صحيح مسلم كتاب الفضائل (٣) ١٢٨/٩ضمن شرح البخاري (العسقلاني).
(٥) رواه الحاكم في المستدرك٣٥/١.

وتجلت هذه الشهادة بأقوال الصحابة الكرام فيه ﷺ واستنار ذلك القدر بأقوال التابعين وتابع التابعين والصالحين إلى يومنا هذا، كلهم يشير إلى ذلك بكل يقين.

ولكن إذا دقت الأمور ، احتاجت إلى سبر وغور وأعني بذلك تلك الأدلة التي تستنبط من اللغة العربية وتراكيبها لتقف إلى جانب ما ذكرناه من أدلة نقلية صريحة في الإشارة إلى عظيم قدره ﷺ ولما كانت اللغة العربية لغة القرآن والبيان ولهذا البيان عدة أساليب تعبيرية لذلك فإن البحث في القرآن يحتاج إلى دقة وعمق فهو الذي لا تنقضي عجائبه وذلك مدعاة إلى القلة والندرة، فإن البحث في ذلك مما يجهد طالبه ويكل باحثه، ومن هذه الأمور، المعاني الدقيقة في التراكيب القرآنية التي نجدها تتكرر بكثرة وفي عدة سور.

فمثلا نجد تراكيب طلبية إنشائية تشير إلى الأمر والطلب بوساطة فعل الأمر (قل) تأتي بعده جملة او متلواً بجملة ــ (قل ... جملة) ــ ومنها تراكيب استفهامية مثل (ألم تر ...) ومنها أيضاً تراكيب مستعملة في الخطاب وذلك كثير في القرآن ويتصدرها تركيب " يا أيها الذين آمنوا ... " كثرة وشيوعاً وفيما يخص ظاهرة توجيه الخطاب لحضرة الرسول ﷺ يطالعنا التركيب " يا أيها " متوصلاً إلى لفظ معرف " بأل " ــ (يا أيها ... + نعت) ــ وقد لفت نظري هذا التركيب ليكون مشكلة البحث هنا وقد جعلت في العنوان لفظة (نعت) بدلاً من (الصفة) لأن [النعت من كل شئ : جيده وكل شئ كان بالغاً نقول : هذا نعت أي جيد .... وفي صفته ﷺ يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده ، والنعت وصف الشئ بما فيه من حسن والوصف يقال في الحسن والقبح] (٣) .

إن تحليل أجزاء هذا التركيب ومعرفة دلالة مفرداته كل لفظ على حدة سيكشف لنا علاقة الألفاظ ببعضها [فالدلالة اللفظية أو المعجمية للكلمة هي الدلالة الأولية وهي غير الدلالة التي تكتسبها بالاقتران والضم وهي الدلالة النحوية أو الوظيفية التي تعبر عن دلالتها بالتركيب] (٤) .

فإن هناك الدلالة اللفظية ودلالة الحال ودلالة السياق ودلالة التركيب ففي ذلك يقول الجاحظ : [وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقل ثم الخط ثم الحال] (٥) فمعرفة اللفظ ووضوح دلالته هي أول الطريق لمعرفة النظم وتليها المعاني الثانية أو الإضافية وهذا يتغير بتغير المفاهيم وهناك المعنى الأسلوبي (٦) وكلها تظهر عن طريق دراسة اللفظ من خلال السياق .

وممن لهم قدم السبق في الكلام في نظم القرآن الكريم الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، فدلالة الألفاظ لديه مرتبطة فيما تفيد من معنى عند التركيب وما

---

(٦) أنظر كتاب عظيم قدره ورفعة مكانه عند ربه، خليل إبراهيم ملا حافظ .

(١) لسان العرب : للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم أبن منظور ١٠٠/٢ مادة (نعت) .
(٢) دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء : د. بتول قاسم ناصر ص٤٤ .
(٣) البيان والتبيين : الجاحظ ٥٦/١ .
(٤) ينظر علم الدلالة دراسة وتطبيقاً : د. نور الهدى لوشن ص٤٠ .

يتصور جملياً عند اقترانهما فإذا راقك هذا المعنى دون ذاك فيعود ذلك إلى حسن التأليف ودقة التركيب [١] وقد أكد الجرجاني أن ظهور المعنى يعتمد على التأليف فقال : [اعلم أن معاني الكلام كلاً معانٍ لا تتصور إلا فيما بين شيئين] [٢] وهذا هو أساس التركيب الدال على المعاني لذلك يعد بحث دلالة التركيب من الأمور الكاشفة لأسرار الألفاظ ومعانيها المنطوية داخل التركيب .

فالجرجاني (رحمه الله) يؤكد على تشابك اللفظ والمعنى حيث يقول : [أما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعد نمطاً واحداً] [٣] .

ومن هنا سأقف عند اللغة العربية آخذاً منها فرعاً ليكون منطلقاً لدراسة التراكيب الخاصة في خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ وعلى وجه الخصوص تركيب اقتران (يا) النداء بنعته ﷺ ، ليتبين لنا مدى لصوق هذه الصيغة من التراكيب بقدره ﷺ وذلك الفرع من العربية هو الجانب الدلالي معتمداً على السياق والحال والدلالة المعجمية للألفاظ .

---

(٥) ينظر تطور البحث الدلالي : د. محمد حسين علي الصغير ص٤٤ .
(٦) دلالة الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ص٣٣٣ .
(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ص٤ .

المبحث الأول

النداء بـ (يا أيها) تعريف وبيان

المطلب الأول ـ دلالة (يا) النداء :

النداء من الأساليب الإنشائية الطلبية [١] بصورة خاصة ، أي هناك مرسل للخطاب وفي المقابل متلقي يستقبل النداء ويعني ذلك أن للصوت دوراً مهماً في هذا الأسلوب من الطلب يقول الفارابي : [النداء : نقطة واحدة مقرونة بحروف التصويت إما في أول اللفظة أو في أخرها أو فيهما جميعاً ، فلذلك يستعمل عند الأمر وعند الطلب وعند التضرع] [٢] .

وأوسع الأدوات في هذا الباب استخداماً وأكثرها استعمالاً في القرآن الكريم هي (يا) وهي [حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكماً وقد ينادى بها القريب توكيداً] [٣] .

إذن حقيقة النداء بـ (يا) هي للبعيد وهو الأصل ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [٤] وقد بين تعالى أنه كما ناداه ناجاه أيضاً ، يقول الطبري في تفسير ذلك : [وأدنيناه مناجياً كما يقال فلان نديم فلان ومنادمه وجليس فلان ومجالسه] [٥] .

أما إذا نودي بها القريب فإنما يكون على وجه المجاز وهو الفرع و (يا) هي أم حروف النداء [٦] فهي تختلف عن أخواتها بأنها تمتاز بـ اقترانها بلفظ

---

(١) ينظر مختصر المعاني شرح تلخيص المفتاح : مسعود بن عمر التغتازاني ، ص١٥٦ .
(٢) الفارابي في حدوده ورسومه : د. جعفر آل ياسين ص٦٠٥ .
(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمل الدين ابن هشام الأنصاري ٣٧٢/٢ .
(٤) مريم : آية (٥٢) .
(٥) تفسير الطبري : ١١٠/١٦ .
(٦) الكليات لأبي البقاء الكفوي ص١٢٧ .

الجلالة ((يا الله)) الذي لا ينادي بسواها ودخولها على الكلام للتنبيه على عظم أمر المدعو وعلو شأنه وللحرص عليه مثل قوله تعالى ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [١] حرصاً على الإقبال والرضا بذلك [٢] .

فكل أسلوب من الأساليب الإنشائية أو الوظيفية لها أركان وحول أسلوب الخطاب يقول الدكتور المخزومي : [إن أسلوب النداء ينبني على شيئين : أداة النداء والمنادى ، ومنهما ينشأ مركب لفظي] [٣] .

والباعث على هذا الأسلوب من الكلام في اللسان العربي وعلى وجه الخصوص في القرآن الكريم [أنها تجري في السياقات المليئة ، ذات الحس الطاغي والموقف المفعم وترى الأداة في كثير منها كأنها صيحة أو صرخة يطلقها الشاعر والبليغ المبين على حد ما نجد كلمات كثيرة في اللغة تمثل في كثير من المواقف قمة الإحساس والحاجة الملحة إلى لفت انتباه من يسمع وإيقاظه مثل كلمة (ألا) و (أما) وغيرها من المقاطع الصوتية المفتوحة التي ترسل الصوت في امتداد متسع] [٤] ولابد من الإشارة إلى أن المنادى ليس مقصوداً بالنداء وإنما لتنبيهه ولفت نظره إلى ما ستقوله له أو تأمره ، أو تنهاه فهو على حد قول سيبويه : [مختص من بين أمته بأمرك أو نهيك أو خبرك] [٥] . فأنت لا تستطيع التكلم مع غيرك ما لم ينتبه .

---

(٧) القصص : آية (٣١) وتمامها ((وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)) .
(٨) ينظر من بلاغة النظم العربي : د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة ١٣٧/٢ .
(١) في النحو العربي (نقد وتوجيه) : د. مهدي المخزومي ، ص٣٠٤ .
(٢) دلالة التراكيب : د. محمد أبو حسن ص٢٧٩ .
(٣) الكتاب : ٢٣١/٢ .

المطلب الثاني ـ دلالة (أي) :

وهي اسم كسائر الأسماء إلا أنها تارة تكون معربة وأخرى مبنية [١] في حين تكون اسماً مبهماً في مثل قولك [يا أيها الرجل يا أيتها المرأة فأي اسم مبهم مفرد معرفة بالنداء مبني على الضم و(ها) هي حر ف تنبيه وهي عوض مما كانت (أي) تضاف إليه ، ورفع الرجل لأنه صفة لأي] [٢] أي لإزالة الإبهام في (أي) التي وصفت بالرجل فصلح نداؤه بـ (يا) . و(أي) تؤدي هنا دوراً مهماً للغاية ، ذلك أن العرب لا تجمع بين (أل) و(يا) النداء ، لأن النداء يفيد التعريف و(أل) تفيد التعريف فيجتمع تعريفان في كلمة واحدة فلا يجوز عربية [لأنك إذا ناديت صار معرفةً بالإشارة بمنزلة (هذا) و(ذاك) وكذلك (أل) تفيد تعر يف العهد ، وهو معنى الغيبة ، والنداء خطاب الحاضر ، فلم يجمع بينهما لتنافي التعريفين] [٣] فكانت أي واسطة للتخلص من هذا المحذور لذاك ذكر ابن هشام [إن من معانيها أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه (أل)] [٤] وقد سوغ ذلك إبهامها فيصح تفسيرها بكل ما فيه (أل) ، والغرض هنا أن يأتي ما فيه أل تفسيراً لها .

---

(١) ينظر شرح ابن عقيل على الألفية : عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ١٦١/١ .
(٢) ينظر اللسان : ١٤/ ٥٧ مادة (أي) .
(٣) الأشباه والنظائر : ص٢٦٠ .
(٤) مغني اللبيب : ١٠٩/١ وينظر اللسان : ٧٥/١٤ مادة (أيا) .

المطلب الثالث ـ دلالة (ها) التنبيه :

(ها) لفظ مشترك بين الاسمية والحرفية وتكون اسماً في مواضع عديدة كتضمنها [معنى اسم فعل أمر تقول : ها للواحد المذكر والمؤنث والإثنين والجميع واللغة ثانياً وهي : هاك هاكما هاكم ولغة ثالثة : هاء للمذكر وهاء للمؤنث وهاؤما وهاؤم وهاؤن [١] ، قال تعالى ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ﴾ [٢] والذي يخص بحثنا هنا هو كونها حرفاً من حروف التنبيه وبالذات مع (أي) في سياق جملة النداء نحو يا أيها الرجل ، وحرف التنبيه لازم في الموضع لأنه كالصلة لأي ، بسبب ما فاتها من الإضافة ولذلك يقول المعربون فيه : (ها) صلة وتنبيه [٣] .

وذكر ابن هشام من وجوه (ها) أن تكون نعتاً (لأي) في النداء وهي في هذا واجبة للتنبيه على أنه المقصود بالنداء [٤] .

وفي كلتا الحالتين فإن (ها) تدل على زيادة في الإنتباه والترقب لما سيقول المخاطب بعد أن نبهه ، لما في (ها) من معنى التوصل بها إلى غيرها فهي [حرف يتوصل بها إلى نداء ما فيه أل] [٥] .

---

(١) معاني الحروف : علي بن عيسى الرماني ص٩٢ .
(٢) الحاقة : آية (١٩) .
(٣) الجنى الداني في حروف المعاني حسين بن قاسم المرادي ص٣٤٢ .
(٤) مغني اللبيب : ٤٥٦/١ .
(٥) الأشباه والنظائر : ٣١٢/١ .

المبحث الثاني
نعوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد النداء

ورد نعت النبي ﷺ في القرآن محصوراً بعد النداء بـــ (يا أيها) في أربعة مواضع جاء الأول نعته بالنبي في أثني عشر موضعاً وقد آثرنا تقدمه على معيار كثرة وروده عن غيره أما نعته بالرسول فقد ورد في موضعين ، ونعته بالمزمـــل والمدثر في موضع واحد وقد قدمنا الأول اعتباراً بالترتيب القرآني .

المطلب الأول ـ دلالة نعته بـ (النبي) :

من أكثر النعوت التي نادى الله بها حبيبه هو لفظ ((النبي)) ضـــمن هـــذه الصيغة ، فقد تكرر في القرآن اثنتا عشرة مرة ، ولفظ النبي في اللغة مأخوذ مـــن النبأ ، وجاء أيضاً من النَبْوة والنباوَة من ذلك ما في (مختـــار الصـــحاح) قولـــه [النبوة والنباوة وهي مارتفع من الأرض وشرف] [١] ومنهم من ذهب إلى أنه من النبأ قال الجوهري [والنبأ الخبر تقول نبَأ ونبَّأ ، أي أخبر ، ومنه أخذ النبيء لأنه أنبأ عن الله تعالى وهو فعيل ، بمعنى فاعل] [٢] قال الراغب [النبـــأ : خبـــر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن] [٣] وقد رجح أصله من النبأ ولو قـــرئ بدون الهمز ، لأن الإبدال والإدغام لغة فاشية وقرئ بهما في الســـبعة [٤] . فهـــو المنبئ عن ربه وهو أيضاً قد شرف على الخلق بعلو منزلته فالنبي هـــي إحـــدى صفات الرسول ﷺ .

وقد عرف الجرجاني النبي بأنه [من أوحي إليه بملك أو ألهم في قلبـــه أو نبه بالرؤيا الصالحة] [٥] .

---

(١) ينظر المختار من الصحاح : محمد محي الدين عبد الحميد ص٥١١ .
(٢) الصحاح : إسماعيل حماد الجوهري ٧٤/١ ، (نبأ) .
(٣) المفردات : أبو القاسم الحسن بن محمد (الراغب الأصفهاني) ص٤٨٢ .
(٤) ينظر المصباح المنير في شرح غريب الرافعي : أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ص٨١١ .
(٥) التعريفات : ص١٣١ .

وأول خطاب للنبي ﷺ بهذه الصيغة في سورة الأنفال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١] وسبب نزول هذه الآية : أن الله تعالى يريد أن يقول لنبيه إن الله تعالى وحده كافيك وكافي أتباعك فلا يحتاجون إلى أحد ، سواء أسلم أربعون من الرجال أو ثلاثون فإن الله هو حسبك [٢] وكان ذلك حينما أسلم سيدنا عمر رضي الله عنه .

وهنا في موقف يتطلب التيقظ والانتباه يناديه ربه عز وجل بأكرم نداء وأشرف خطاب ملاطفاً إياه يا رفيع القدر حسبك الله [٣] ويدل على ذلك مناداته بصيغة (يا أيها النبي) التي هي من الألقاب المشرفة ، وقد سمى ابن الجوزي ذلك بنداء الكرامة [٤] .

وخطاب الله تعالى بصيغة النبي لا يكون إلا في مقام خاص إذ أن [النبوة تكليف القيام بالرسالة فيجوز إبلاغ الرسالات ولا يجوز إبلاغ النبوات] [٥] ، أما في مقام العام فيكون آنذاك بقرينة [٦] تخرجه من دلالة الخصوص إلى دلالة العموم كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء ﴾ [٧] ولم يقل (طلقت) فأضاف إلى لفظة (طلقت) قرينة ، لفظية هي (م) الدالة على الجماعة المخاطبين ، فانتقل المراد من نداء المفرد إلى إرادة الجماعة بالقرينة اللفظية .

---

(٦) الأنفال : الآية ٦٤ .
(١) ينظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي : ص١٨٧ .
(٢) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان : إسماعيل حقي البروسوي ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ٣٨/٢ .
(٣) المدهش : أبي الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي ، المؤسسة العلمية ، بيروت ـ لبنان ١٩٧٣ ، ص٢ .
(٤) الفروق في اللغة : ص٢٨٤ .
(٥) الإتقان في علوم القرآن : السيوطي ٣٣/٢ .
(٦) الطلاق : آية (١) .

المطلب الثاني ـ دلالة نعته بـ (الرسول) :

خاطب الله تعالى نبيه في القرآن بهذه الصيغة مرتين فقال في الآية الأولى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُـذُوهُ وَإِن لَّـمْ تُؤْتَـوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) وقال في الآية الثانية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

والرسول في اللغة [المرسل ، وترسَّل في قرآءته إتأد والإرسال التسليط والإطلاق والإهمال والتوجيه] (٣) وسيأتي أن التسليط والتوجيه والتحميل من صفات الإرسال الاصطلاحي ، وقد ذكر في المقاييس : [الراء والسين واللام ، أصل واحد مطرد منقاس يدل على الانبعاث والامتداد] (٤) ، وقال العسكري : والإرسال لا يكون إلا بتحميل ، والرسالة تضاف إلى الله لأنه المرسل ، والرسول يقتضي إطلاق لسانه بالرسالة (٥) .

أما اصطلاحاً : فهو [إنسان بعثه الله إلى الخلق بتبليغ الأحكام . قال الكلبي والفراء : كل رسول نبي من غير عكس] (٦) وقد وضح الإمام الرازي إشارات هاتين الآيتين فقال [إن الله تعالى لما بين بعض التكاليف والشرائع وكان قد علم ﷺ من بعض الناس كونهم متسارعين إلى الكفر لا جرم صبّر رسوله على تحمل ذلك وأمره بأن لا يحزن من أجل ذلك فقال : (ولا يحزنك ... الآية) (٧) .

لقد كانت هذه الآية بما فيها من صفة الرسالة من رب العالمين وكغيرها من الآيات تتضمن خطاباً من الله تعالى ، تنبيهاً ونهياً له ﷺ عن الحزن لمسارعة المنافقين إلى الكفر واليهود بنقض عهودهم معه ذاك أن الآية نزلت في إرسال اليهود أناساً من المنافقين ليختبروا رأي ر سول الله ﷺ في حد الزاني ، وقول

---

(١) المائدة : آية ٤١ .
(٢) المائدة : آية ٦٧ .
(٣) القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ٣٨٤/٣ .
(٤) مقاييس اللغة : أحمد بن فارس ٣٨٢ .
(٥) ينظر الفروق في اللغة : لأبي هلال العسكري ص٢٨٤ .
(٦) ينظر التعريفات : أبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (السيد الشريف) ص٦٤ .
(٧) التفسير الكبير : للإمام الرازي ٢٣١/١١ .

بعضهم لبعض إذا قضى بالجلد والتحميم فخذوه وإذا قضى بالرجم فاحذروا [1] آنذاك نزلت هذه الآية فكانت تسلية له ﷺ .

وأما الآية الثانية (يا أيها الرسول بلغ ... الآية) فمعناها يتضح أكثر حينما نعلم سبب نزولها ونقف على دلالتها في سياقها فقد روي في ذلك أن رسول الله ﷺ قال : [إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً وعرف أن الناس مكذبي فوعدني لأبلغن] [2] فنزلت الآية ، تسلية له ﷺ ، وفي ندائه بـ (يا أيها الرسول) شهادة له بالرسالة .

و (أل) في الرسول للعهد الحضوري أي الرسول الحاضر وقت نزولها وهو محمد ﷺ [3] . وقد أكد هذا المعنى الكفوي في معجمه قائلاً : [إن إرسال الرسول تكليف دون بعثة لأنه تكوين محض وكفاك شاهداً قوله ﷺ (بعثت إلى الناس عامة) [4] لا مرسلاً إليهم كافة لأن تبليغ الرسالة إلى أطراف العالم من أصناف الأمم كان خارجاً عن الوسع] [5] لذلك فإن هذا النوع من التركيب يناسب الخطاب لشخص النبي ﷺ وتجلى ذلك من خلال ما في (يا) من التأكيد وما في (ها) من التنبيه وفي التدرج من الإبهام في (أي) إلى التوضيح ، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن كل ما نادى الله عباده بأوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده أمور عظام وخطوب جسام ومعانٍ واجب عليهم أن يتيقضوا له ويميلوا إليه بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، إقتضى الحال بأن ينادوا بالآكد الأبلغ] [6].

---

(٨) ينظر النظم الفني في القرآن : عبد المتعال الصعيدي ص٩٣ وينظر لباب النقول في أسباب النزول : ص٢٦٥ .
(١) ينظر لباب النقول في أسباب النزول : ص١١٩ .
(٢) ينظر حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : ٢٩٤/١ .
(٣) صحيح البخاري : ١٢٨/١ .
(٤) الكليات : للكفوي ص٧٧ .
(٥) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن ، للسيوطي : ٤٤٥/١ ـ ٤٤٩ .

المطلب الثالث ـ دلالة نعته بـ (المزمل) :

بصيغة (يا أيها المزمل) مرة واحدة خاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ في القرآن الكريم كله ، وكان ذلك في بداية البعثة الشريفة .

وقد وردت لفظة المزمل في المعاجم اللغوية بأنها مأخوذة من [زمل يزمِل ، ويزمل زمالاً ، ــ أي ــ عدا معتمداً في أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر ، وأخذه بأزمله أي جميعه والزملة الرفقة ، والتزميل الإخفاء واللف في الثوب ، وتزمل تلفف ، والمزملة المعظمة التي يبرد فيها الماء ، عراقية] [١] وهناك علاقة مشتركة بين المعنى اللغوي للمزمل والصورة التي كان عليها رسول الله ﷺ ، فحيث أراد الله أن يعد نبيه الكريم ﷺ لتحمل أكبر رسالة في الوجود ، الرسالة العامة إلى جميع الخلق إلى أن يرث الأرض ومن عليها ، وحيث أنه بشر بينه وبين الملك تنافر في الطبيعة المادية ، لذلك اضطرب وخاف عند أول لقاء وذهب إلى أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) ، كأنه محموم وقال : زملوني ، زملوني [٢] وكان ذلك إعداداً لنبيه بأن الدعوة هي خروج من حالة العزلة والإنكماش وإنها مسيرة شاقة ولا يكون ذلك إلا إذا تهيأ الإنسان لتحملها [بتوزيع الأعمال على الأوقات فيقوم في وقت للعمل الذي فيه ينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للإرشاد والتعليم] [٣] فحالة التلفف وهيأة المتلبب تجاه أمر كان لا بد من توجيه من الله تعالى له فخاطبه باسم مشتق من حالته فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، وقد ورد عنه ﷺ حينما خاطب حذيفة ﷺ وكان نائما (قم يا نومان) [٤] ولعلي ﷺ (يا أبا تراب) [٥] حينما اضطجع على التراب ، فكان النداء من الله إشعاراً لذلك العتاب [٦] وقد وردت إشارات من المفسرين حول هذا الخطاب كما في قول أبي حيان بأن مناسبة هذه الآية " يا أيها المزمل " لآخر ما قبلها أن في آخر تلك ــ الآيات فاتبعه بقوله " يا أيها المزمل " إعلاماً بأنه عليه الصلاة والسلام ممن ارتضاه من الرسل وخصصه بخصائص وكفاه بشر اعداءه

---

(١) ينظر القاموس المحيط : ٣٩٠/٣ .
(٢) ينظر التفسير الواضح : محمد محمود حجازي ٥٣/٢٩ ، صحيح مسلم : ١٤١/١ .
(٣) إلى القرآن الكريم : محمود شلتوت ص١٦١ .
(٤) صحيح مسلم : ١٤١٤/٣ .
(٥) صحيح مسلم : ١٨٧٤/٤ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن : ٦١/١٩ .

[١] وقد أضاف ابن المنير تعليقاً لطيفاً حول مقام الرضا لحضرة النبي ﷺ [أنه لم يخاطب باسمه نداءاً وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً وتشريفاً] [٢] .

المطلب الرابع ـ دلالة نعته بـ (المدثر) :

حينما تتكاثر المعاني وتتعدد ، تلاحقها ألفاظ مناسبة للدلالة عليها فالله تعالى حينما نظر إلى حاله ﷺ الذي كان عليه الخطاب من صيغة المتزمل إلى صيغة المتدثر لمزيد من العناية والملاطفة فالقرآن نزل بلغة العرب وما تجده العرب باعثاً روح الدعابة والأنس فإن خطاباتها ونداءاتها ستجري على ذلك النمط ، وكان ذلك الحال في القرآن مع ما فيه من روعة البيان ، وإعجاز في النظم .

وقد نبه أهل اللغة إلى الأصل اللغوي للفظة المدثر بأنه من [الدثار ـ بالكسر ـ وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار ، وقد تدثر أي تلفف في الدثار] [٣] .

ولما أعد الله نبيه لتحمل المشاقة في مسيرة الدعوة ونبهه لذلك وناداه بالمزمل أراد بيان المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه فخاطبه " يا أيها المدثر ، قم فأنذر " والمدثر هو اسم الفاعل من الفعل (ادثر) أصله تدثر ثم قلبت تاؤه دالاً وأدغمت في الدال الأصلية لتجانسهما وتقارب مخرجهما والنداء بهذا الوصف ينهض الهمم ويوقظ النفس ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقى من تعاليم [٤] فكأنه قيل له [يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم والخلق الكريم والرحمة والرحمة الكاملة قم فانذر عذاب ربك] [٥] .

وقد تأكدت العناية الإلهية في مخاطبة الرسول ﷺ بصيغة هي أفضل صيغ النداء من إشارة إمام النحاة سيبويه بقوله [وأما الألف والهاء اللتان لحقتا (أي) توكيداً فكأنك كررت (يا) مرتين إذا قلت (يا أيها) [٦] وفي ذلك إشعار إلى أن النبوة والرسالة تبليغ ودعوة ظاهرة ويدل عليه قوله ﷺ (الأنصار شعار والناس دثار) [٧] [وفيه إشارة إلى أن الولاية كالشعار من حيث تعلقها بالباطن والنبوة كالدثار من حيث تعلقها بالظاهر ولذلك خوطب ﷺ بمقام الإنذار بالمدثر] [٨] ليسير وفق المنهج المرسوم له من قبل الله تعالى ...

---

(٧) النهر الماد من البحر : لأبي حيان التوحيدي ٣٥٨/٨ .
(٨) الانتصاف : ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير ١٥١/٤ .
(١) الصحاح : ٦٥٥/٢ ، مادة (دثر) .
(٢) ينظر إلى القرآن : محمود شلتوت ص١٦١ .
(٣) التفسير الكبير : للإمام الرازي ١٩٠/٣٠ .
(٤) الكتاب : ١٩٧/٢ .
(٥) صحيح مسلم : ٧٣٨/٢ .
(٦) تفسير روح البيان : ٢٢٣/١٠ .

المطلب الخامس - وجوه الإتفاق والإفتراق في دلالة النعوت (النبي ، الرسول ، المزمل ، المدثر) :

تبين مما تقدم أن الله تعالى قد خاطب النبي ﷺ بنعوت مختلفة فمرة بالرسول وتارة بالنبي وأخرى بالمدثر وأخراها بالمزمل وتنوع هذه الخطابات له معانٍ دلالية وإشارات بلاغية ومعجزة قرآنية ، ففي مقام كان فيه الكفار والمنافقون يرفضون حكم النبي ﷺ ، فهم يسارعون في الكفر لذلك كان يحزن النبي ﷺ ، بيد أن الله تبارك وتعالى أراد أن يبعد هذا الحزن عن قلبه ﷺ ، وزيادة على ذلك يسليه ويلاطفه فيقول له ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ففي هذه الآية الكريمة تأنيس للنبي ﷺ (٢) وفي مقام يضيق الرسول ﷺ ذرعاً جراء تكذيب الناس له جاءت الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) . وفي هذا يقول البروسوي [بلغ مما يتعلق من مصالح العباد] (٤) مشيراً إلى فرق دلالي سياقي من خلال لفظ (بلغ) بعد النداء بالرسول فالمسألة إذن ليست خاصة بالنبي ﷺ وإنما هي حزن على أحوال البشر لذلك فالرسول ومعنى الرسالة تشيران إلى أن تكون تبليغاً للناس وهو مأمور بالتبليغ وبهذا السبب أي (في مقام الأمر بالتشريع العام وما فيه بيان للناس وإصلاح لهم ناداه الله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (٥) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٦) .

---

(١) المائدة : آية (٤١) .
(٢) ينظر الجامع لأحكام البيان : القرطبي ١٧٦/٣ .
(٣) المائدة : آية(٦٧) .
(٤) ينظر تنوير الأذهان : ٤٣٦/٦ .
(٥) المائدة : آية (٤١) .
(٦) المائدة : آية (٦٧) .

ولو نظرنا إلى أسباب نزول الآيات التي خاطب الله نبيه بنعت (النبوة) لتبين أن النداء ومعنى الخطاب فيه إنما هو خاص بشخصه ﷺ وأحواله وحياته ، ففي مطلع سورة الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ [١] نجد مطلباً كان سببه [أن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وكذلك ساندهم المنافقون واليهود] [٢] فالخطاب يشمل حضرته ﷺ لا غير والآية الأخرى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [٣] الخطاب خاص به ﷺ حيث أن زوجاته يسألنه النفقة ، فقد أخرج مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما ﷺ فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذاه ، وقال هن حولي سألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقول : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال : ((إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت : ما هو ، فتلا عليها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [٤] قالت عائشة : (رضي الله عنها) أفيك استأمر أبوي ؟ بل اختار الله ورسوله [٥] .

وفي سورة التحريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٦] قال السيوطي : وسبب نزول هذه الآية وهذا الخطاب [أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً] [٧] وهذا كله من العناية الربانية بالنبي ﷺ ، فإن الأمر خاص به عليه الصلاة والسلام ، ومعنى الحرام هنا في هذه الآية قال في الكشاف : [المراد بالتحريم الامتناع بالاستماع بمارية لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحله الله ولم يكن عتاب الله إلا لمزيد من الإعتناء به] [٨] .

والخطاب بصيغة النبي يكون في الأمر الخاص ، فإن دلت الآيات على العموم بصيغة النبي فإنما تدل بقرينة خارجة عن لفظة النبي كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن

---

(٧) الأحزاب : آية (١) .
(٨) ينظر لباب النقول في أسباب النزول : ص٤١٧ .
(١) الأحزاب آية (٢٨) .
(٢) الأحزاب آية (٢٨) .
(٣) لباب النقول : ص٥٤٩ .
(٤) التحريم : آية (١) .
(٥) لباب النقول : ص٥٤٩ .
(٦) الكشاف : ١٩٣/٣ . وينظر التفسير الواضح : ٦١/٢٨ .

يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ [١] فدلت قرينة ((طلقتم)) على عموم الخطاب وفي ذلك يقول السيوطي : [وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام مع قرينة إرادة العموم كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء ﴾ ولم يقل ــ طلقت ــ وذلك لأن النبي إمام أمته وقدوتهم وهو وحده في حكم كلهم وساد مسد جميعهم] [٢] .

وأما نداؤه بالمزمل والمدثر فإن الأمر ليس في شئ من التبليغ خاص به ﷺ أو تبليغ عام لجميع البشر ، وإنما كان الرسول ﷺ في حالة جديدة وهي بداية نزول الوحي ولرؤية جبريل عليه السلام لأول مرة جالساً بين السماء والأرض فاستدعى ذلك ملاطفة ورفعاً للهمة ثم رسماً للمنهج القويم الذي ينبغي أن يسير عليه .

ولقد تكرر النداء بصيغة ((الرسول)) مرتين في حين أخذت صيغة ((النبي)) حيزاً كبيراً من هذا النوع من الخطاب حتى بلغ اثنتي عشرة مرة وخوطب ﷺ مرة واحدة بالمزمل ومرة بالمدثر فقط .

وثمة فرق دلالي بين هذه النعوت الأربعة [فالرسول أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام أليه عيانا وجاء بشرع مبتدأ وأنه مأمور بالتبليغ في حين أن النبوة تكون إلهاماً ومناماً ، وأنه غير مأمور بالتبليغ فالرسول أفضل بالوحي الخاص] [٣] وعلى هذا [فالرسول أخص مطلقاً من النبي] [٤] ويعني ذلك أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا و [النبوة سفارة من الله وبين ذوي العقول ومعاشهم] [٥] وأضاف العسكري رحمه الله دقائق الفروق بين النبي والرسول بأن [النبي لا يكون إلا صاحب معجزة ، ويكون الرسول رسولاً لغير الله تعالى ويعني ذلك لغة فلا يكون صاحب معجزة ، والنبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي فيقال نبوة النبي لأنه يستحق منها الصفة التي هي على طريق الفاعل ، والرسالة تضاف إلى الله لأنه المرسل] [٦] ومن جهة أخرى فإن النبوة تفترق مع الرسالة من حيث أن النبوة راجعة إلى التعرف بالإله وبما يجب للإله وهي أخبار عما يستحقه الرب سبحانه وتعالى من صفات الجلال ونعوت الكمال وهي متعلقة بالله تعالى من طرفيها ، والإرسال دونها لأنه أمر بالإبلاغ إلى العباد فهو متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر ولا شك أن ما تعلق بالله من طرفيه أفضل مما تعلق به من أحد طرفيه [٧] ويمكن القول بناءاً على ما تقدم أن نداء الله حبيبه بنعت النبوة راجع إلى ما لهذا النعت من تعلق بالله تعالى فهو أفضل نعوت المصطفى ﷺ فكان مناسباً أن تتكرر وأكثر من غيرها من الصفات في القرآن الكريم في سياق الخطاب النبوي يقول أبو بكر ابن العربي ، قولهم إن الخطاب له لفظاً ، والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله الخطاب له وللمؤمنين لاطفه بقوله يا

---

(٧) الطلاق : آية (١) .
(٨) القول البديع في الصلاة على النبي الشفيع : ص٣٠ .
(١) تعريفات الجرجاني : ص١٣١ .
(٢) الكليات : ص٩٠٠ (نبي) .
(٣) مفردات : ص٤٨٣ .
(٤) الفروق في اللغة : ص٢٨٤ .
(٥) ينظر القول البديع : ص٣١ .

أيها النبي وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال " يا أيها الرسول " .[1] ومن هنا كان مناسباً لصوق هذه المعاني الكثيرة بتعدد النداء بـ " يا أيها النبي " .

المطلب السادس ـ دلالة الخطاب بـ (يا أيها) :

الخطاب المسبوق بـ " يا أيها " هو أحد التراكيب القرآنية التي تساق في مقام التشريف وذهب إلى ذلك كثير من العلماء منهم صاحب كتاب المدهش في فصل [ذكر الخطاب في القرآن] قال [وخطاب المدح] " يا أيها الذين آمنوا " [2] ويدل على ذلك ما لا جزاء هذا التركيب من معان لغوية نتج عنها معنى يخلو عنه الخطاب بدون هذه الصيغة وقد أشار إلى هذه الحقيقة علماء اللغة والتفسير فإن [النداء عندهم بهذه الصيغة فيه وجوه من التأكيد وفسرت بتكرر ذكر المنادى لأنه متبوع بوصف هو المقصود بالنداء ، فأي منادى صورة والمعرف بـ (أل) منادى قصداً ، وفيه الإيضاح بعد الإبهام ، واختيار أداة نداء البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه واجتماع التعريفين في النداء و " أل " [3] لذلك فقد خاطب الله تعالى المؤمنين بـ " يا أيها الذين آمنوا " ، في موطن يتطلب التشريف والتكريم ، ولما كانت أحسن صيغ الخطاب هي بـ " يا أيها " فقد كان الرسول ﷺ أحق الناس لأن ينادى وبكثرة بهذه الصيغة وليمتاز النبي ﷺ من بقية الأنبياء قدراً ورفعة بدليل لغوي من القرآن الكريم فإننا نجد أن الله تعالى [خاطب الأنبياء بأسمائهم الشريفة مثل ، يا أدم ، يا نوح ، يا موسى ، ويا زكريا ، ويا يحيى ولم يقل يا محمد بل ناداه " يا أيها النبي " ، " يا أيها الرسول " ، " يا أيها المزمل " ، " يا أيها المدثر " ، بألقاب مشرفة تدل على علو جنابه [4] .

وفي ندائه ﷺ إشارة أخرى وهي تأديب المؤمنين عند مخاطبة الرسول ﷺ ودليل ذلك أن ربنا تبارك وتعالى ناداه ولاطفه بألقاب ولم يناده باسمه .

والمؤمنون يجب أن يقتدوا بالقرآن مع النبي ﷺ فكان تأديباً لهم ، قال صاحب تفسير المنار موضحاً هذه الإشارة في الخطاب بأنه [يتضمن النهي عن مخاطبته باسمه والأمر بأن يخاطبوه بوصفه وكذلك كان يدعوه أصحابه " يا رسول الله "] [5] بل إن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته لأن ذلك يؤذي النبي ﷺ وتلك الأذية هي أدنى مرتبة من النهي عن مناداته باسمه وذلك لأن نعت الرسالة والنبوة هي جامعة لكل صفة هي تحتها ، ولنضرب لذلك مثالاً .

---

(٦) التحرير والتنوير : ٢٩٤/٢٩ .
(١) المدهش : لأبي الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي ص٢ .
(٢) ينظر مواهب الرحمن في تفسير القرآن : ١١١/١ (سورة البقرة آية ٢١) .
(٣) ينظر تنوير الأذهان : ٨٥/٢ .
(٤) ينظر تفسير المنار : ٣٨٦/٢ .

معلم الابتدائية أو المتوسطة لو ناديته باسمه مصغراً أو باسمه الصريح أو بكنيته (أبو فلان) كل ذلك هي صفات يشتمل عليها لكن ذلك أدنى من قولنا له يا أستاذ فلان ، فعلى ذلك ومن لغة العرب وفهمها ، إذا أردنا أن نعطي رسولنا حقه في النداء والخطاب ، أقل ما فيه أن نقول " يا رسول الله " أو " يا نبي الله " تأسياً بالقرآن ولكن إذا ازدادت المحبة ، فإننا سنجد أمثلة كالصحابة الكرام كقولهم : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ــ فداك نفسي يا رسول الله ــ لبيك يا رسول الله ــ فالرسول ﷺ أفضل الناس بل أن فضله على الأنبياء تبين من خلال الدلالة اللغوية بأفضل صيغ العربية في النداء ألا وهي " يا أيها الرسول " قد جاءت (يا) وتلتها (أي) المبهمة والإبهام نوع من أساليب جلب الانتباه ثم جاءت (ها) لإزالة الإبهام عن (أي) ثم التوصل إلى المنادى الحقيقي فكانت هذه الصيغة توطئة للنداء ولفت الانتباه ، لتلقي أمر أو نهي ، ملاطفةً أو تشريفاً ، فإن إحاطة الإبهام حول شيء ما من الأساليب التي تشد السامع لمعرفة حقيقة هذا المبهم ، [فإن الإبهام هو الاشتباه] [1] .

ومن هنا فإن معرفة المنادى أمر ضروري لأنه من سيوكل إليه الأمر بعد التنبيه ، وفي صيغة (يا أيها + نعت) قد يتوهم أن المنادى (أي) أو (ها) لذلك صرح العلماء بأن [المقصود بالنداء إنما هو النعت لا لـ (أي) لكن لما كان لا يمكن مناداته لما فيه من الجمع بين (يا) و (أل) أتي بـ (أي) توصلاً لندائهِ] [2] .

---

(١) الكليات : ص٣٣ .

(٢) حاشية الدسوقي ، الشيخ مصطفى محمد عرفة الدسوقي ص٩٥ .

* الخاتمة *

إنطلاقا من اللغة العربية ودلالاتها المعجمية والسياقية والحالية جرى هذا البحث حول نعوت المصطفى ﷺ وما اقترنت به هذه النعوت من ادوات نجوية اتسقت مع النعت باسلوب قراني يوحي بمكانة المنعوت بسبب نداء نعوته المتعددة ، فكثرة الاوصاف الحميدة تدل على علو شأن الموصوف

من الأمور البديهية عند المسلمين أن الرسول ﷺ هو أفضل الخلائق فطرة ووراثة في حين أن هناك أدلة من القرآن من الناحية اللغوية والدلالية تشير على أنه أفضل الأنبياء والرسل وهذا الذي تبين من خلال البحث حينما نادى الأنبياء بأسمائهم ولم يناد محمداً ﷺ إلا بألقابه ونعوته وكل تلك النعوت مسبوقة (يا أيها) .

ثم إن اختلاف النعوت كان مناسقاً للمقام الذي خاطب اللّه نبيه ﷺ فالرسول في مقام التشريع العام والنبي في مقام التشريع الخاص والمدثر في مقام الملاطفة والمزمل كذلك وفي جميعها دلالة على التنبيه والملاطفة مع خصوصية كل نعت بمقامه .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* المصادر *

١. أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، دار المطبوعات العربية .
٢. إلى القرآن الكريم : محمد شلتوت ، دار الشرق د.ت د.ط..
٣. الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، بيروت .
٤. الأشباه والنظائر في النحو : السيوطي ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٩٧٥ .
٥. الانتصاف : ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي ، مطبعة مصطفى محمد ــ مصر ، الطبعة الأولى ، (مطبوع مع الكشاف) .
٦. البيان والتبيين : للجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب ، بيروت .
٧. التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر د.ت .
٨. التعريفات : أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني ، طباعة دار الشؤون الثقافية ــ أفاق عربية .
٩. التفسير الكبير : للإمام فخر الدين الرازي ، الطبعة الثانية ، طهران .
١٠. التفسير الواضح : محمد محمود حجازي ، الطبعة الرابعة ١٩٦٠م .
١١. الجامع لأحكام القرآن : أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ــ لبنان .
١٢. الجنى الداني : حسين بن قاسم المرادي ، القاهرة .
١٣. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٧٩ .
١٤. صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
١٥. الفارابي في حدوده ورسومه : د. جعفر آل ياسين ، عالم الكتب ١٩٨٥ ، الطبعة الأولى .

١٦. الفروق في اللغة : لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري ، القاهرة .
١٧. القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي ، دار العلم للجميع ، بيروت ــ لبنان د.ط.د.ت .
١٨. القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع : شمس الدين بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان الطبعة الثانية ١٩٧٧ .
١٩. الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ــ القاهرة ١٩٨٦ .
٢٠. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى محمد .
٢١. الكليات : أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، مؤسسة الرسالة ١٩٩٨ ، الطبعة الثانية .
٢٢. المختار من صحاح اللغة : محمد محي الدين ، محمد عبد اللطيف السبكي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، الطبعة الخامسة .
٢٣. المدهش : جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي ، المؤسسة العالمية ــ بيروت ١٩٧٣ .
٢٤. المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، بيروت .
٢٥. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : أحمد بن محمد بن علي الفيومي ، دار القلم ــ بيروت .
٢٦. المفردات في غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) دار المعرفة ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨ .
٢٧. النظم الفني القرآني : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب جماميز ــ مصر .
٢٨. النهر الماد من البحر : لأبي حيان الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت سنة ١٩٩٠ ، الطبعة الثانية (مطبوع مع البحر المحيط) .
٢٩. تطور البحث الدلالي : د. محمد حسين علي الصغير ، مطبعة العاني ــ بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ .
٣٠. تفسير المنار : محمد رشيد رضا ، الطبعة الثانية ــ بيروت .
٣١. تفسير روح البيان : إسماعيل حقي بروسوي ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، د.ت .
٣٢. تنوير الأذهان من تفسير روح البيان : تحقيق محمد علي الصابوني ، مطبعة الدار الوطنية .

٣٣. جامع البيان في تفسير القرآن : أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة ــ بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .
٣٤. جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : دار إحياء التراث العربي ــ بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩ ، (ضمن تفسير الجلالين) .
٣٥. حاشية الشيخ مصطفى محمد عرفة الدسوقي على مغني اللبيب : مطبعة المشهد الحسيني القاهرة .
٣٦. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : الشيخ أحمد الصاوي المالكي ، نشر المكتبة المركزية .
٣٧. دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، القاهرة دار المطبوعات العربية .
٣٨. دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء : د. بتول قاسم ناصر ، دار الشؤون الثقافية ــ بغداد ١٩٠٠ ، الطبعة الأولى .
٣٩. دلالة التركيب : د. محمد أبو موسى ، د. ط . ت .
٤٠. شرح ابن عقيل على الألفية : عبد الله بن عقيل ، دار الفكر ، الطبعة السادسة عشر ، ١٩٧٩ ، القاهرة .
٤١. صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
٤٢. علم الدلالة (دراسة وتطبيق) : د. نور الهدى لوشن ، جامعة قان يونس بن غازي ١٩٩٥ ، الطبعة الأولى .
٤٣. في النحو العربي (نقد وتوجيه) : د. مهدي المخزومي ، المكتبة العصرية ١٩٦٤ ، الطبعة الأولى .
٤٤. لباب النقول في أسباب النزول : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت الطبعة الأولى .
٤٥. لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر بيروت د.ت .
٤٦. مختصر المعاني شرح تلخيص المفتاح : الطبعة الأخيرة ، مصطفى البابي الحلبي ــ مصر .
٤٧. معاني الحروف : أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ــ جدة الطبعة الثانية ١٩٨١ .
٤٨. معترك الإقران في إعجاز القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، طبعة دار الفكر العربي ، د.ت .
٤٩. معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكريا ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٢٠٠١ ، الطبعة الأولى .

٥٠. مغني اللبيب من كتب الأعاريب : أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين ، مطبعة المدني أ ــ القاهرة .
٥١. من بلاغة النظم العربي : د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب ــ بيروت .
٥٢. مواهب الرحمن في تفسير القرآن : للعلامة عبد الكريم محمد المدرس ، الطبعة الأولى ، دار الحرية ــ بغداد ١٩٨٦ .